IEREK PRESS
Academic Research Community

BAHETH
Arabian Researchers Database

BAHETH Print ISSN:(2536 - 9946)
http://www.ierek.com/press

CrossMark

المجلة الدولية في:
العمـــارة والهندســـــة والتكنولوجيـــــا

DOI: 10.21625/baheth.v1i1.189

المدينة الإسلامية بين الحقيقة والتشويه

عبد السلام أحمد سليمان[1]

[1] *مدرس بقسم العمارة – كلية الهندسة – جامعة الأزهر*

الكليمات الدلالية

أقوال المستشرقين في المدينة الإسلامية؛ الخصوصية في المدينة الإسلامية؛ استدامة المدن الإسلامية.

الملخص

تعرضت المدينة الإسلامية إلى الكثير من التشويه والتدليس من قبل العديد من المستشرقين وذلك من خلال أبحاثهم وكتاباتهم، حيث صوروا المدينة الإسلامية على أنها من المدن التي قامت دون تخطيط مسبق، جعلها ضمن المدن العشوائية، او العفوية، وصولا الى المدن الفوضوية ذات الأزقة الضيقة والمتيهة والتي يحتاج الزائر إليها إلى مرشد حتى لا يضيع في المدينة، بالإضافة إلى عدم تلبيتها للاحتياجات المطلوبة للسكان. في المقابل تحسين صورة المدن الإغريقية والرومانية، وذلك على أنها مدن مخططة ومنظمة.

تهدف الدراسة إلى رصد أقوال المستشرقين عن المدينة الإسلامية وفي المقابل إبراز المبادئ والقيم التي أسست عليها المدينة الإسلامية وكيف أنها حققت المتطلبات الإنسانية للسكان، بالإضافة إلى أنها حققت مبادئ الاستدامة والتي ينادى بها كل العالم حديثاً.

لتحقيق أهداف الدراسة فقد بنيت على ثلاثة اتجاهات أساسية هي:

- توضيح الهدف من نشأة المدن الإغريقية والرومانية بالإضافة إلى مدن العصور الوسطى في أوربا، وذلك في مقابل المدن الإسلامية، بهدف الوقوف على مدى توفير أي من هذه المدن الحياة الكريمة للسكان.
- عرض أقوال الغرب في المطالبة بتحقيق الخصوصية في المسكن، وفي المقابل دراسة المبادئ الأساسية التي قامت عليها المدينة الإسلامية والتي من أهمها تحقيق الخصوصية.
- قراءة لمطالبة العالم حديثا بتطبيق الاستدامة في المباني، ومن الناحية الأخرى توضيح كيف حققت المدينة الإسلامية مبادئ الاستدامة من استدامة اجتماعية، وبيئية، واقتصادية.

ثم في النهاية تثبت الدراسة كذب وزيف أقوال المستشرقين والتي حاولوا من خلالها تزييف صورة المدينة الإسلامية.

1. مقدمة.

تتحدد إشكالية البحث في دراسة أقوال ودراسات المستشرقين عن المدينة الإسلامية، والتي يمكن القول إن هذه الأقوال لم تؤسس على دراسات علمية موضوعية، بل أسست على أهواء شخصية.

يهدف البحث إلى الرد على هذه الأقوال من خلال توضيح أهم المبادئ والأسس التي قامت عليها المدينة الإسلامية عموماً والمسكن خصوصاً، والتي قامت بصورة أساسية على تحقيق المتطلبات الإنسانية للسكان، وذلك في ضوء أقوال الغرب أنفسهم والمنادية بضرورة تحقيق تلك المبادئ الإنسانية، وذلك مثل توفير الخصوصية في البيئة السكنية، بالإضافة إلى تحقيق الاستدامة.

يتحدد المجال العلمي للبحث في دراسة تاريخ المدن الأوربية القديمة ومقارنتها بالمدن الإسلامية من حيث مدى تلبية المدينة للمتطلبات الإنسانية، لاسيما في ضوء أقوال الغرب المنادية بذلك، بالإضافة إلى دراسة مدى تحقيق المدينة الإسلامية للاستدامة في ظل المطالبات العالمية حديثاً بضرورة تحقيقها في البيئة السكنية.

2. رؤية المستشرقين للمدينة الإسلامية.

تحاول الدراسة أن ترصد بعض أقوال المستشرقين حول المدينة الإسلامية والمسكن الإسلامي، والتي حاولوا من خلالها تزييف الحقيقة وتشويه الصورة ومنها:

كريسويل Creswell والمعروف في دراسة المدن والعمارة الإسلامية يقول إن مدن البصرة والكوفة والفسطاط ما هي إلا مدن متميزة "بأزقة فوضوية متيهة ومجازات صماء متداخلة مع خيام وأكواخ بينها أرض ضائعة، حيث يحتاج الزائر لمدينة الكوفة إلى مرشد عندما يزور الحي الآخر (حتى لا يضيع).

لامينس Lammens يقول "إن العبارات المختلفة التي استخدمها المؤرخون العرب كالحيرة والفسطاط والقيروان تقترح صورة غير منظمة لمدينة نامية".

جرونوبوم Von Grunebaum حيث يقسم المدن الإسلامية إلى مجموعتين هما: مجموعة المدن التلقائية أو العفوية أو العشوائية spontaneous ، ومجموعة المدن المبدعة created أو المخططة. فمجموعة المدن التلقائية هي النمط السائد في العالم الإسلامي.

وما هذه الانتقادات إلا انعكاس مباشر لمقارنة هؤلاء الباحثين للمدن الإسلامية بالمدن الإغريقية والرومانية، وذلك لأن السلطات المركزية هي التي خططت المدن الإغريقية والرومانية ولذلك اعتبرت مدناً مثالية أو منظمة أو مرتبة لاستقامة شوارعها وتحاذي مبانيها. (أكبر، 1995م)

ومن هنا فإن الدراسة ستقوم على ثلاثة محاور:

- التعرف على تاريخ المدن الأوربية ومقارنتها بالمدن الإسلامية من حيث مدى تحقيق المدن للاحتياجات الأساسية للسكان.
- رصد بعض أقوال الغرب المنادية بضرورة توفير الخصوصية بالمسكن، وفي المقابل دراسة المدينة الإسلامية للتعرف على مدى تحقيق الخصوصية من عدمه.
- قراءة لموضوع الاستدامة والذي ينادي به العالم حديثاً، وفي المقابل محاولة التعرف على مدى تحقيق المدينة الإسلامية لمبادئ الاستدامة من عدمه.

3. المحور الأول: المدن الأوربية والإسلامية ومدى تحقيق المتطلبات الانسانية.

المدينة الإغريقية والرومانية.

اعتمدت المدينة الإغريقية والرومانية في تخطيطها على النظام الشـبكي المتعامد المكون من شـوارع مسـتقيمة متقاطعة ومتعامدة، والتي تعكس سـيطرة الحكم وتقديس الشـعب للنظام والقانون. وفي المركز يوجد المعبد الروماني أو الكنيسة الكاتدرائية في العصر البيزنطي وحولها الساحة العامة.

مدينة العصور الوسطى.

مع بدء تفكك الدولة الرومانية في أواخر القرن الخامس الميلادي بدأت المدن في أوربا في التدهور والتفكك، وهجرها السـكان إلى الريف بسـبب عدم الاسـتقرار وانعدام الأمن، الأمر الذي أدى إلى التفاف الفلاحين حول قصـور الإقطاع بحثا عن الأمن وسبل العيش، ثم أحيطت هذه التجمعات بأسـوار للحماية، وبدأ الاهتمام بها يتزايد مع اختراع المنجنيق وغيره من الآلات الحربية ونشـأت بذلك مدن العصـور الوسـطى في أوربا محاطة بأسـوار عالية، ومع تزايد عدد السـكان بدأت المباني تتزاحم في المدينة وتسـتولي على فراغها وأصـبح الازدحام ونقص الخدمات وانتشار الأوبئة مشاكل خطيرة تهدد هذه المدن (الكحلوت، 2010).

شكل 1. تخطيط مدينة تيمجاد الرومانية بشمال أفريقيا (حماد، 2006)

من ذلك يتضـح أن معظم المدن الإغريقية والرومانية وكذا مدن العصـور الوسـطى كانت تبنى لتسـتوعب احتياجات الحكم أكثر منها لخدمة احتياجات السكان، حيث تمثل المدن الإغريقية والرومانية صورة لنظام الحكم الفردي والذي ظهر في تنظيم شـبكة الطرق المتعامدة والمسـتقيمة من أجل التحكم في الداخل والخارج من السـكان، بينما أقيمت المدن الأوربية في العصـور الوسـطى لاستيعاب الفلاحين الذين هاجروا وتجمعوا حول الإقطاعيين لخدمتهم، الأمر الذي أدى إلى ظهور مدن عصر النهضة للتغلب على مشاكل المدن القديمة والتي خططت بأشكال هندسية مجردة لا تراعي النمو الطبيعي للسكان. (الكحلوت، 2010)

المدينة الإسلامية.

ارتبطت هذه المدن (شـكلاً ومضـموناً) ارتباطاً وثيقاً وكاملاً بالإسـلام، كمنهج وطريقة في الحياة، وأصـبح الإسـلام ونظامه وأحكامه هو المحور الأسـاسـي الذي تدور حوله حياة المدينة بأسـرها وبكل تفاصـيلها، وبجوانبها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتخطيطها وتركيبها العمراني (غرايبة، 2015).

وخير دليل على ما سبق اهتمام كثير من الباحثين (مسلمين وأجانب) بإبراز دور الإسلام في تاريخ التمدن، وإظهار أثره الإيجابي على المدينة الإسلامية من حيث مبناها ومعناها، وخير شاهد على ذلك هو الكم الهائل من أقوال العالم الفرنسـي موريس لومبارد في كتبه العديدة عن دور الإسـلام في حركة التمدن والعمران مقارنة بعصـور التمدن السـابقة، فيقول: "كانت الحضـارة الإسـلامية بين الصـين والهند وبيزنطة والكيانات البربرية وذلك خلال

الإمبراطوريات القديمة وحتى يقظة الدول العصرية". ويمكن القول إن الحضارة الإسلامية كانت في مجدها الأول عبارة عن بوتقة تاريخية وجغرافية، وقد شهدت منطقة العراق وهي مركز الخلافة العباسية نهضة عمرانية خارقة، مثل مدينة بغداد، والبصرة، والكوفة (غرايبة، 2015).

تخطيط المدينة الإسلامية.

اعتمد تخطيط المدينة الإسلامية على المشاركة الفعالة للسكان في المدينة، والذي راعى التركيبة الاجتماعية، حيث اختصت كل قبيلة أو عائلة في موضع بالمدينة مع ترك إمكانية النمو والتطور لكل منها، كما اعتمد تخطيط المدن الإسلامية على الشكل العضوي الطبيعي المرن والقابل للتمدد حسب حاجة السكان.(الكحلوت، 2010)

بالإضافة إلى ذلك فكان يراعى في اختيار موقع المدن الإسلامية مشاركة أصحاب العلم والدراية في قضايا الصحة والزراعة والري والتجارة لاختيار الموقع المناسب للمدينة، كما يشترط أن تكون المدن في أماكن مرتفعة وعلى نهر جار عذب لمد المدينة بالمياه اللازمة. (علي، 2007)

ذكر ابن أبي الربيع مجموعة من الشروط أو المبادئ التخطيطية التي يقول إنه استخلصها من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين أثناء بنائهم عاصمة الإسلام الأولى (المدينة المنورة)، وكذا من بناء المدن الإسلامية المبكرة مثل البصرة والكوفة والقيروان والفسطاط، وتتمثل في:

شروط اختيار مواقع المدن الإسلامية.

يقول ابن الربيع "وتعتبر في إنشاء المدن ست شرائط":

- سعة المياه المستعذبة.
- إمكان الميرة المستمدة.
- اعتدال المكان وجودة الهواء.
- القرب من المرعى والاحتطاب.
- تحصين منازلها من الأعداء والذعار.
- ان يحيط بها سور يعين أهلها.

فالماء شرط أساسي في اختيار مواقع المدن، عليه تقوم الحياة، وتعتبر سعة المياه نظرة مستقبلية لازدياد متوقع في عمران المدينة، أما توفير الغذاء فهو شرط أساسي لنشأة المدن واستمرار حياتها، فيكون موقعها مرتبطاً بالإقليم وبالطرق التجارية الرئيسية فينعكس ذلك على رخائها، ويؤكد شرط اعتدال المكان على أهمية المناخ والاعتبارات الصحية في اختيار المسلمين لمواقع مدنهم، نظرا لأهمية التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية، كما أن توفير الزرع والمرعى والوقود والغذاء والأخشاب اللازمة للبناء من مقومات ازدهار المدن لتأمين مصادرها واحتياجاتها الأولية، وعند اختيار موقع المدينة فلابد من تحصينها بالمعالم الطبيعية الحاجزة التي تعين على دفع الأخطار (نهر مثلاً)، وزيادة على ذلك يجب إحاطتها بسور، زيادة في التحصين والحماية.

شروط تخطيط مواضع المدن الإسلامية.

ذكر ابن أبي الربيع مجموعة من الشروط تتمثل في:

- أن يسوق اليها الماء العذب ليشرب ويسهل تناوله من غير عزف.
- أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.
- أن يبنى فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.

- أن يقدر أسواقها حتى ينال سكانها حوائجهم عن قرب.
- أن يميز بين ساكنيها بأن لا يجمع بين أضداد مختلفة ومتباينة.
- إن أراد سكناها فليس أفسح أطرافها وليجعل خواصه كفالة من سائر جهاته.
- أن يحوطها بسور خوفا من اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة.
- أن ينقل إليها من أهل العلم والصـــنائع بقدر الحاجة لســكنها حتى يكتفوا بها ويســتغنوا عن الخروج إلى غيرها (غرايبة، 2015).

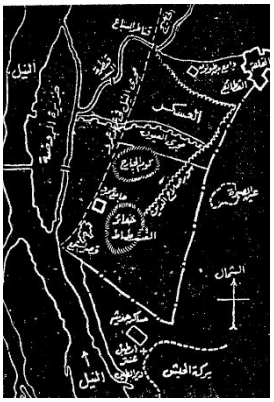

شكل 2. رسم تخطيطي يوضح موقع الفسطاط والعسكر والقطائع، جنوب القاهرة، ويبدو شاطئ النيل بمجراه القديم بالقرب من جامع عمرو. (عبدالجواد، 2010)

وبذلك نرى مدى الاهتمام في اختيار موقع ونمط تخطيط المدينة الإسلامية لتلبية الاحتياجات الأساسية للسكان، مثل المأكل والمسكن والمشرب وتوفير الأمن والأمان للسكان، بالإضافة إلى توفير العمل الذي يوفر للمقيم بالمدينة الحياة الكريمة.

على ذلك يمكن القول إن تخطيط المدينة الإسلامية لم يكن عشوائياً كما يقول المستشرقون، بل أسس لتلبية أهداف اساسية توفر الحياة الكريمة للسكان.

4. المحور الثاني: الخصوصية كمطلب إنساني.

الخصوصية.

احتياج الأفراد لمزاولة أنشـــطتهم المختلفة دون مراقبة أو متابعة من الآخرين، وهي تعني الحماية من فضـــول الآخرين، وحماية أصحابها من الاتصال الخارجي غير المرغوب فيه، وهذا يهيئ سبل الراحة والاستمتاع بالحياة مع توفير الحد المناسب من العلاقات الاجتماعية، والتعامل مع الآخرين. (الفرا، 2013)

أنواع الخصوصية: (سليمان ع.، 2017)

الخصوصية البصرية.

ترتبط بحاســـة البصـــر التي تعد من أهم وســـائل المراقبة لتصـــرفات الآخرين، ومن هنا يمكن دراســـة مفهوم الخصوصية البصرية في إطار الحماية البصرية التامة من نظرات المشاهدين أو المتطفلين سواء بالحماية التامة أو الحماية النسبية، ارتباطا بنوعية النشاط الممارس من الفرد أو الجماعة كما يتضمن مفهومها الإحساس بالحماية من

المراقبة والمتابعة للفرد سواء أكان منفردا أم في إطار الجماعة، وكذلك عدم التعدي على حرياته وخصوصياته سواء على المستوى الخارجي أم الداخلي، ونجد أنه في أوقات كثيرة يحتاج الإنسان إلى العزل البصري عن الخارج بنسبة كبيرة ارتباطا بأنشطة معينة تستلزم هذا القدر من الحماية البصرية.

الخصوصية السمعية.

تمثل الخصوصية السمعية إمكانية توفير بيئة صوتية مناسبة للراحة الفسيولوجية والنفسية داخل المسكن تتيح للإنسان القيام بمختلف الأنشطة بطريقة طبيعية دون أن يستمع إلى حديث الآخرين أو يستمع إليه الآخرون، وتأتى حاسة السمع في المرتبة الثانية من وسائل المراقبة الطبيعية لتصرفات الغير بعد حاسة البصر، وهى في الوقت نفسه لا تقل أهمية عنها، حيث يستغلها الشخص المتطفل في معرفة أحاديث الغير عن طريق التنصت، مما يسبب عدم الراحة ومراقبة غير مستحبة للأشخاص المراقبين، فيلجأون إلى خفض أصواتهم مما يسبب لهم نوعا من الكبت لحريتهم.

الخصوصية الشمية.

تعتبر حاسة الشم من الحواس الأساسية والرئيسية للإنسان، لذلك فالخصوصية الشمية في مفهومها العام لا يمكن تحقيقها إلا إذا توافر للإنسان الارتياح والأمان فيما يتعلق بخاصية الشم، والتي ترتبط عموما بأي روائح، سواء مرغوبة أم غير مرغوبة، والتي تؤثر نفسيا وسيكولوجيا وبالدرجة الأولى على صحة الإنسان، وتأتى في خلال إطار المنفعة، والصحة العامة للمجتمع.

مستويات الخصوصية.

تقسم مستويات الخصوصية إلى ثلاثة مستويات هي الخصوصية على المستوى العام والخصوصية على المستوى شبه العام، والمستوى الخاص.

- **الخصوصية على المستوى العام.**

تشمل المناطق والفراغات ذات الاستعمال العام على مستوى الحي السكني، والطرق الرئيسية والمناطق التجارية في الحي السكني، والأماكن المفتوحة والخضراء.

- **الخصوصية على المستوى شبه العام.**

تشمل المناطق والفراغات ذات الاستعمال العام على مستوى المجاورة السكنية.

- **الخصوصية على المستوى الخاص.**

هي أعلى مستويات الخصوصية المطلوبة لأن استعمال المسكن يقتصر على أشخاص محددين ويمارس فيه العديد من الأنشطة وتختلف درجة الخصوصية المطلوبة لكل نشاط. (دحلان، 2008)

الخصوصية كاحتياج إنساني.

قام علماء النفس والاجتماع بتحديد هذه الاحتياجات كالتالي:

الاحتياجات الثابتة.

- الاحتياجات الاجتماعية "الحياة في جماعة، الخصوصية، الأمان، الحاجة إلى تحقيق الشخصية وخلق الفردية".
- الاحتياجات الوظيفية.
- الاحتياجات البيولوجية.

الاحتياجات المتغيرة.

- الاحتياجات الاقتصادية.
- الاحتياجات الجمالية.

شكل 3. التنظيم الهرمي لأولويات الاحتياجات الأساسية والفرعية للإنسان طبقاً لتقسيم موسلو ويتضح أن الخصوصية مدرجة ضمن الاحتياجات الأمنية للإنسان (سليمان ع.، 2013)

الغرب ومفهوم الخصوصية:

- يقول (Chapin 1951) إن الخصوصية هي أن تحس بانفرادك بعيداً عن ضغط الآخرين.
- يقول (Kuper 1953, Kira 1966) إن الخصوصية هي منع التطفل والعلاقات الغير مرغوب فيها سواء السمعية أم المرئية أم بكافة وسائل الاتصالات.
- يقول (Rapport 1972) إن الخصوصية هي القدرة على التحكم في الانفصال أو عمل علاقات مع الآخرين، حيث إنها الأداة لمنع أو تحقيق هذه العلاقات.
- يقول (Altman 1980) إن الخصوصية هي تحديد طريقة التحكم في تصرفات الشخص تجاه النفس أو تجاه المجموعة. (إسماعيل، 1994)

لذلك تعتبر الخصوصية مطلباً إنسانياً فطرياً، ويعتبر المسكن الموطن الأساسي للإنسان الذي يجب أن يحقق فيه مبدأ الخصوصية.

المدينة الإسلامية وتحقيق الخصوصية.

يوفر النسيج العمراني في المدينة الإسلامية القديمة الفراغات المناسبة للسكان لممارسة الأنشطة المختلفة بحرية، كما يعكس المسكن في هذه المدينة القديمة التوازن المطلوب بين الخصوصية لأصحاب المنزل والاتصال مع بقية السكان موجه إلى الداخل حول الفناء لحماية خصـوصـية المرأة وإعطائها الراحة والحرية في التخلص من رقابة الآخرين. (علي، 2007)

يعتبر المبدأ الأساسي في تصميم النمط العمراني في المدينة الإسلامية هو إيجاد التوازن بين الخصوصية المطلوبة للأسرة والتلاحم المطلوب للمجتمع ككل، فعلى سبيل المثال تدعو حياة المسلم المنزلية إلى الخصوصية

الكاملة والتي تستلزم الفصل الشديد عن الأنشطة الخارجية، وفي نفس الوقت عليه المشاركة الفعلية في أنشطة المجتمع.

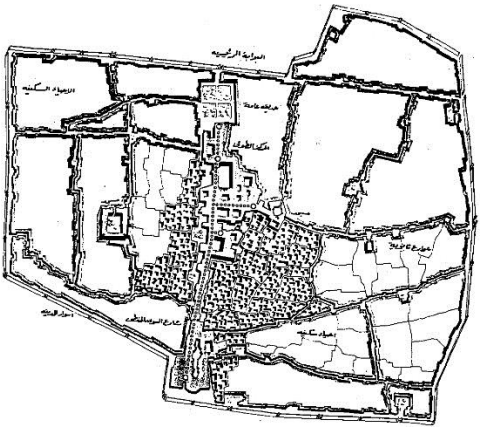

شكل 4. النسيج العمراني للمدينة الإسلامية وتحقيق الخصوصية (إبراهيم، 1983)

في إطار ذلك نجد أن المساكن في المدينة الإسلامية تتجمع حول حارات صغيرة وضيقة، وينتهي بعضها بنهاية مقفلة. وتصب هذه الحارات في ساحة صغيرة (فراغ شبه خاص) تستغل هذه الساحة في إقامة احتفالات الزفاف وسرادقات العزاء وما شابه ذلك. أما على مستوى الحي، نجد أن كل مجموعة سكنية تتجمع حول مركز صغير (فراغ شبه عام) تزاول به الأنشطة الأسبوعية ويضم جامع ومدرسة وبعض المحلات الصغيرة. وعلى مستوى المدينة تتجمع الأحياء مع بعضها مشكلة فيما بينها ساحة عامة رئيسية بحيث تكون هناك مسارات حركة مباشرة من الأحياء إلى الساحة، والعكس غير صحيح. كل ذلك يعمل على تحقيق الخصوصية على كل المستويات، بدءاً من المستوى الخاص بالمسكن وصولاً إلى المستوى العام على مستوى المدينة. (شلبي، 1984)، وقد تميز المسكن في المدينة الإسلامية باستخدام عناصر معمارية متعددة تحقق في النهاية الخصوصية للمستخدمين، وذلك بدءاً من استخدام المداخل المنكسرة والتي لا تسمح لمن في الخارج برؤية من بالداخل والذي يؤدي إلى طرقة تتصل بالفناء الداخلي كما زودت بعض الدور بممرات داخلية تمكن أهل الدار من التنقل بين أجزائه دون المرور بالفناء الأوسط، بالإضافة إلى استخدام المشربيات لحجب رؤية من بالخارج للداخل. (عبدالجواد، 2010)

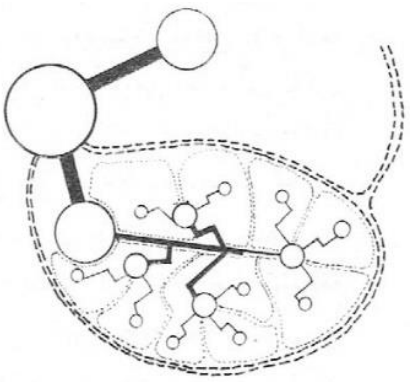

شكل 5. التدرج الهرمي للفراغات في المدن الإسلامية. (شلبي، 1984)

على ذلك يمكن القول إن الأسس التي قامت عليها المدينة الإسلامية بصورة عامة والمسكن بصورة خاصة كلها تصب في توفير الخصوصية بكل مستوياتها بدءاً من المستوى العام، مروراً بشبه العام، ثم المستوى الخاص.

5. المحور الثالث: الاستدامة والمدينة الإسلامية.

مفهوم الاستدامة.

بدأ مفهوم الاستدامة بالظهور والتطور منذ السبعينيات من القرن العشرين، لكنه انتشر واستخدم في قطاعات صناعة البناء والتشييد خاصة بعد التسعينيات (بعد مؤتمر ريو دو جانيرو عام 1992م). حيث اتجه العالم للاهتمام بالارتباط الواضح بين التنمية الاقتصادية والبيئية، ومن هنا ظهر مفهوم التنمية المستدامة (Sustainable Development)، التي تعرف على أنها "تلبية احتياجات الأجيال الحالية دون الإضرار بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها".

ويعد مفهوم "التنمية المستدامة" في إطاره العام مفهوماً بيئياً ثم تحول إلى مفهوم تنموي شامل يراعي ثلاثة محاور رئيسية تعد الدعائم الأساسية؛ باختلاف أحدها تتأثر الأهداف الرئيسية للتنمية أو الاستدامة، والمحاور هي:

- المحور البيئي Environment
- المحور الاجتماعي (الإنساني) Society
- المحور الاقتصادي Economy

وقد أكدت الاستدامة في الجانب الاجتماعي على ضرورة دمج المبنى بمحيطه اجتماعيا سواء على مستوى الجماعات البشرية أم على مستوى العلاقة مع الإرث الثقافي والعمراني والمعماري للمنطقة. (قاسم، 2014)

الغرب والاستدامة في المدينة الإسلامية.

توجد العديد من كتابات الغرب والتي أشادت بالعمارة الإسلامية من حيث تحقيقها لمبدأ الاستدامة، وفي هذا السياق نجد أن "بول أوليفر"Paul Oliver" في كتابه "موسوعة العمارة التقليدية" يؤكد نجاح العمارة التقليدية إلى كونها نتاجا للتجاوب المنطقي مع الموارد المتوفرة في البيئة والعوامل المناخية وحاجات المجتمع، أما "بريان إدواردز Brian Edwards" وهو أحد أهم المختصين في الاستدامة والعمارة الخضراء، يؤكد على أسس الاستدامة في العمارة التقليدية بقوله "لقد تمكنت العمارة التقليدية من مزج أبعاد الاستدامة الاجتماعية مع متطلبات البيئة لتشكيل عمارة مستدامة متوافقة مع البيئة". (شاهين، 2008)

تحقيق الاستدامة في المدينة الإسلامية.

تعتبر المدينة الإسلامية بنسيجها المتضام أفضل مثال على تطبيق مفهوم الاستدامة على مستوى المدينة ككل، فتخطيط المدينة ومعالجات مسارات الحركة من حيث العرض، والشكل، الطول، التوجيه، يمثل المرحلة الأساسية للتكيف مع البيئة. حيث يؤدى النسيج المتضام إلى تلطيف مؤثرات المناخ الأساسية والتخفيف من آثارها خاصة درجات الحرارة العالية والاشعاع الشمسي والرياح المتربة والحارة وبالتالي التخفيف من إجمالي الحمل الحراري المؤثر على واجهات الأبنية خاصة الوحدات السكنية. (شاهين، 2008)

وكما ذكر سابقا عن أسس ومبادئ تخطيط المدينة الإسلامية والتي أوضحها ابن أبي الربيع، نجد أن المدينة الإسلامية قامت على ثلاثة أسس رئيسية وهي:

- المجتمع: حيث تحقيق متطلبات واحتياجات السكان، في ضوء حياة تعتمد على التعاون دون الإضرار بأي من أفراد المجتمع.
- البيئة: توفير كل السبل والإمكانيات المتاحة لتحقيق بيئة مريحة وصحية للسكان.
- الاقتصاد: وذلك بتوفير الاستقرار الاقتصادي لسكان المدينة. (غرايبة، 2015)

يعتبر من أهم مظاهر التخطيط العمراني للمدينة الإسلامية هي الشوارع الضيقة مع الأفنية الداخلية المكشوفة واللذان يقومان بتوفير الظلال والحماية من أشعة الشمس مما يسمح بانتقال الهواء من الشوارع الضيقة التي تمثل مناطق الضغط العالي إلى الأفنية الداخلية التي تمثل مناطق الضغط المنخفض خاصة أثناء النهار وتعرضها لأشعة الشمس. وكان عدم جعل شوارع وممرات المدينة مستقيمة بهدف تحويلها إلى أنفاق للرياح الشتوية الباردة أو رياح الخماسين الساخنة المحملة بالأتربة والرمال، كما أن ضيق الشوارع يمنع حدوث ذلك من خلال التعرجات والانحناءات وإتاحة مناطق مظللة أيضا. (علي، 2007)، **وبذلك تتحقق الاستدامة البيئية داخل المدينة الإسلامية.**

أما بالنسبة للمسكن في المدينة الإسلامية فقد تميز بأنه جزء من النسيج العام للمدينة ولم يكن منفرداً او شاذاً عن المباني المجاورة، يقوم على وحدة الجيرة والتي تمثل أهم التوجهات الحديثة للسكن المستدام اجتماعياً، وبذلك يؤكد على الترابط الاجتماعي دون تمييز طبقي أو اجتماعي في المظهر الخارجي، هذا لا يعني عدم إضافة كل فرد لمسكنه الخاص من الداخل ما يلبي متطلباته واحتياجاته. (شاهين، 2008)

شكل 6. وحدة الجيرة وفق مفهوم الاستدامة الاجتماعية في النسيج الحضري في المدينة الإسلامية.

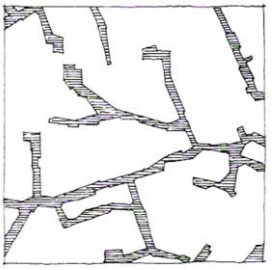

شكل 7. الحارات مغلقة النهاية للحفاظ على وحدة الجيرة في المدينة الإسلامية.

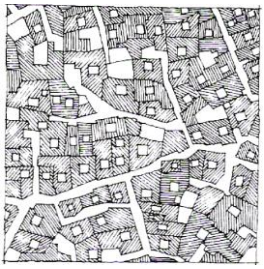

شكل 8. التشكيل الفضائي للأفنية الداخلية للمباني وعلاقتها بعموم النسيج الحضري لتحقيق الاستدامة البيئية. (شاهين، 2008)

عناصر تحقيق الاستدامة البيئية في المسكن الإسلامي: (علي، 2007)

تنوعت العناصر المعمارية المستخدمة في المسكن الإسلامي لتحقيق الاستدامة نذكر منها ما يلي:

الفناء الداخلي.

هو الحوش الداخلي أو المنور وسط مسطح المبنى يستخدم للإضاءة والتهوية، وقد يكون مغلقا أو شبه مغلق، ويعتبر الفناء الداخلي من أهم العناصر المعمارية التي ميزت العمارة الإسلامية، والذي يعمل على معالجة مشاكل البيئة بنجاح كبير، حيث يعمل كمنظم لدرجات الحرارة داخل المبنى ليلا ونهارا، من خلال توزيع الحمل الحراري داخل المبنى ليعطي مزيدا من الإحساس بالراحة الحرارية.

شكل 9. الفناء في البيت الإسلامي-يوفر الخصوصية ويتلائم مع البيئة المحلية. (إبراهيم، تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، 1982)

ملقف الهواء.

عبارة عن فتحات بالأســـقف تمثل مداخل للهواء إلى داخل الغرف ليخرج من الفناء الداخلي لاتمام حركة الهواء، وقد اســتخدمت الشــخشــيخة ليخرج منها الهواء القادم من الملقف. وتكون الملاقف مائلة الأســقف مثلثة الجوانب ما عدا الجهة التي تواجه تيارات الهواء الذي ينحدر إلى الطابق الســفلي، وكانت المظلة تميل بمقدار 45 درجة. وهناك نماذج للملاقف في بيتي السناري والسيحيمي بالقاهرة.

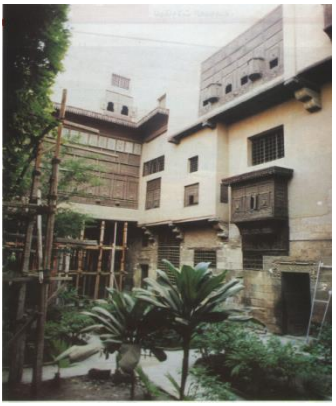

شكل 10. شكل توضيحي لوظيفة الملقف. (التكييف، 2013)

المشربيات.

ظهرت المشــربيات الخشــبية بالعمارة الإســلامية وتمثل معالجة معمارية تســمح بدخول الرياح الملطفة، مع ضبط مرور الضوء حيث تخفف من حدة أشعة الشمس المباشرة وغير المباشرة.

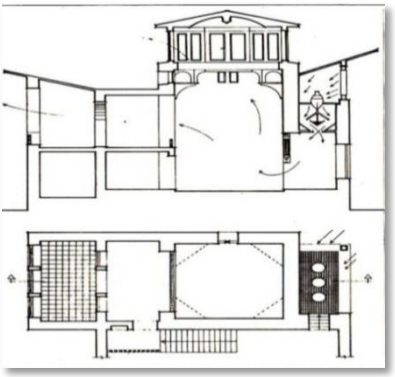

شكل 11. استخدام المشربيات في معالجة الفتحات، بيت السيحيمي.

بالإضــافة إلى ذلك فقد اســتخدمت مواد بناء محلية متوفرة في البيئة المحيطة للمســكن الإســلامي وذات ديمومة عالية، مثل الحجر والطوب، مع اســتخدام الجير والجبس، وبذلك يعمل على تخفيض تكاليف البناء وكذا يمكن إعادة اســتخدامها **وبذلك يتم تحقيق الاســتدامة الاقتصــادية بالمبنى**، مع كون هذه المواد ذات ســعة حرارية عالية تبعا لسمكها، والتي تعمل على تخزين الحرارة في وقت النهار ثم إعادة بثها إلى الفضاءات الداخلية ثانية في ساعة المســاء وبذلك يتم تحقيق التوازن الحراري في المبني مما يعمل على توفير الراحة الحرارية الداخلية والذي يعمل

على خفض استخدام وسائل تهوية صناعية مثل المكيفات والمراوح، مما يعزز تحقيق المسكن الإسلامي للاستدامة الاقتصادية. (شاهين، 2008)

بذلك يتضح لنا مدى تحقيق المدينة الإسلامية للاستدامة سواء على المستوى البيئي أم الاجتماعي وكذا الاقتصادي.

6. نتائج وتوصية.

- أثبتت الدراسة زيف أقوال المستشرقين المشوهة للمدينة الإسلامية.
- نشأت المدينة الاسلامية لتلبية الاحتياجات الإنسانية وليس لتحقيق متطلبات الحكام كما في المدن الرومانية واليونانية.
- كان اختيار مواقع المدن الإسلامية بما يوفر كل مقومات الحياة للسكان، من مأكل ومشرب وفرص عمل، بما يحقق الحياة الكريمة للسكان.
- وفرت المدينة الإسلامية للسكان الخصوصية بمستوياتها المختلفة بدءا من المستوى العام على مستوى المدينة وصولاً إلى المستوى الخاص داخل المسكن.
- تمثل العمارة الإسلامية مصدراً مهماً للقيم والمبادئ الإنسانية والتي يجب أن تراعى في تصميم المباني السكنية المعاصرة.
- تحقيق الخصوصية في البيئة السكنية لا ينعكس إيجابيا على الفرد وفقط بل يصل النفع إلى المجتمع ككل عن طريق توفير بيئة سكنية مستقرة للإنسان والذي ينعكس بدوره إيجابيا على المجتمع.
- حققت المدينة الإسلامية مبادئ الاستدامة، البيئية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتي ينادي بها العالم حديثاً.
- استخدام النسيج المتضام في المدينة الإسلامية ساعد على تحقيق الاستدامة.
- ضرورة نشر مبادئ تخطيط المدن الإسلامية بين المتخصصين والعامة بهدف تأصيل قيم ومبادئ العمارة الإسلامية.
- إعداد الأبحاث المتخصصة في العمارة الإسلامية بقصد إبراز القيم المثلى والمبادئ التي أسست عليها لرد كل الشبهات التي تثار ضد مبادئ تخطيط وإنشاء المدن الإسلامية.

7. المراجع.

1. أحمد سعيد قصاب، عبد الحكيم الحسيني، هادية موفق الفرا، (2013)، نحو محيط سكني فعال اجتماعياً في العمارة السكنية المعاصرة، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة العلوم الهندسية، المجلد 35، العدد1.
2. توفيق أحمد عبدالجواد، (2010)، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، الجزء 3، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
3. جميل عبد القادر أكبر، (1995م)، عمارة الأرض في الإسلام، مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية، بيروت، مؤسسة الرسالة.
4. خليف مصطفى غرايبة، (2015)، منهجية الفكر الإسلامي في تخطيط المدينة العربية الإسلامية - ابن أبي الربيع أنموذجا، المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية.
5. رولا نتيفة، محمد منون، ديمة قاسم، (2014)، العودة إلى التراث في العمارة العربية المعاصرة في ظل الاستدامة، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد 36، العدد3، دمشق.
6. سيد عباس علي، (2007)، أثر البعد البيئي على تخطيط المدن والعمارة الإسلامية، مؤتمر الأزهر الهندسي الدولي التاسع، القاهرة.
7. عبد الباقي إبراهيم، (1983)، المنظور الإسلامي للتنمية العمرانية، القاهرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية.

8. عبد الباقي إبراهيم، (1982)، تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، القاهرة: مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية.
9. عبد السلام أحمد سليمان، مايو(2017)، الخصوصية في المسكن المصري المعاصر، مجلة العلوم الهندسية، جامعة أسيوط.
10. عبد السلام احمد سليمان، (2013)، مفهوم الخصوصية في المدينة العربية، ماجستير، القاهرة، كلية الهندسة، جامعة الأزهر.
11. عصام رجب إسماعيل، (1994)، مفهوم الخصوصية وتأثيره على تصميم المسكن في مصر، القاهرة، ماجستير،كلية الهندسة، جامعة أسيوط.
12. كليفن موفتن، طارق شلبي، (1984)، مدخل جديد لتصميم المسكن في المدينة الإسلامية، الإسكان في المدينة الإسلامية، القاهرة، منظمة العواصم والمدن الإسلامية.
13. محمد حماد، (2006)، تخطيط المدن الإنساني عبر العصور، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.
14. محمد عبد الباقي إبراهيم، شيماء جاد حسنين، فريق العمل بقسم التكييف، (2013)، محاكاة أداء المباني باستخدام التهوية الطبيعية بأسلوب معاصر، المؤتمر الأول لفرع الرابطة الدولية لمحاكاة أداء المباني في مصر- نحو بيئة مشيدة خضراء ومستدامة - القاهرة.
15. محمد علي الكحلوت، (2010)، قراءة تقييمية للمدينة الإسلامية وأسس تخطيطها. قسم الهندسة المعمارية، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين.
16. مها صباح سلمان، بهجت رشاد شاهين، (2008)، مبادئ الاستدامة في العمارة التقليدية وفق المنظور الإسلامي، المجلة العراقية الهندسية المعمارية، العدد 12-13، الجامعة التكنولوجية، العراق.